

من أعلام الإسكندرية في العصر الإسلامي :

عبد الرحمن بن هرمز (الأعرج)

التابعي الجليل

لئن كانت الإسكندرية تعزى بالصحابي الجليل أبي الدرداء ، وبالضريح الموجود بها والمنسوب إليه^(١) ، فإنها تعزى أيضاً بتابعي من التابعين الأجلاء تجمع المصادر على أنه زارها وأقام بها وقتاً ما وتوفى بها^(٢) .

هذا التابعي الجليل هو عبد الرحمن بن هرمز الأعرج .

وقد زار الإسكندرية عدد من الصحابة الأجلاء ، وعدد آخر من التابعين الكرام ، ولكنها — لأمر ما — لم تحتفظ إلا بذكرى واحد من هؤلاء وهو أبو الدرداء ، وذكرى واحد من أولئك هو عبد الرحمن ابن هرمز .

والمتفق عليه أن الصحابي هو كل مسلم رأى النبي — عليه السلام — ولو ساعة ، وإن لم يجالسه ويخالطه ، وإن كان معظم أهل الأصول يشترطون في الصحابي مجالسة الرسول .

والمتفق عليه كذلك أن التابعي هو الذي رأى صحابياً ، وإن كان البعض يشترطون في التابعي أن يكون جالس صحابياً .

(١) أنبتنا في بحث آخر أن أبا الدرداء لم يميت ولم يدفن بالإسكندرية ، وإنما مات ودفن في دمشق ، انظر : (جمال الدين الشيبان : أبو الدرداء الصحابي الجليل ، مقال بالجملة ، العدد ٥ ، مايو ١٩٥٧ ، ص ٩٥ — ١٠١) .

(٢) تعزى الإسكندرية بضمير يندرج إلى عبد الرحمن بن هرمز ، ولكن الشكوك تحوم حول نسبة هذا الضريح إليه ، انظر الفقرات الأخيرة من هذا المقال .

وقد وفد على الاسكندرية وعاش فيها عدداً من التابعين الكرام رواة الحديث ، منهم :

— ثمامة بن شفي الهمداني أبو علي المصري ، نزيل الاسكندرية ، روى عن عقبة بن عامر وفضالة بن عبيد ، وثقته النسائي ، ومات قبل العشرين ومائة .
— ضميم بن مالك الكلاعي الحميري — قاضي الاسكندرية — روى عن ابن عمر .

— ربيعة بن سيف المَعافري الاسكندراني ، روى عن فضالة بن عبيد ، وروى عنه الليث بن سعد ، ووصفه الدارقطني بأنه مصري صالح ، وتوفي في حدود عشرين ومائة .

— وزاهر بن معبد بن عبد الله بن هشام التيمي ، أبو عقيل ، نزيل مصر ، روى عن جده ، وله صحبة عن ابن عمر وابن الزبير ، ومات بالاسكندرية سنة ١٣٥ هـ عن سن عالية .

ومنهم صاحبنا الذي نتحدث عنه في هذا المقال : عبد الرحمن بن هرمز ، أبو داود المدني .

وحياة ابن هرمز غامضة غموضاً عجيباً ، ولم تصلنا عنه إلا شذرات قليلة ، سنحاول — بعد جمعها ودراستها — أن نستوضحها وأن نستشف منها صورة لهذا العالم الجليل ، وطرفاً من سيرته .

* * *

هو عبد الرحمن بن هرمز بن أبي سعد ، وكنيته أبو داود ، المشهور بالأعرج ، القرشي ، المدني .

كان يرتبط بأسرة بني هاشم — أسرة الرسول عليه السلام — برابطة الولاء ، فهو مولى ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، وفي رأى آخر أنه مولى محمد بن ربيعة .

لا نعرف شيئاً عن سنة ولادته ، ولسكننا نعرف من الطبقة الثانية أنه من التابعين ، وأنه ولد في المدينة النبوية ، وعاش فيها في وقت كانت المدينة فيه مجتمع الخُلّاص من علماء المسلمين من الصحابة والتابعين وتابى التابعين ؛ وكان العلم الذي يشغل الناس في ذلك الوقت هو القرآن وتفسيره ، والحديث وروايته ، والفقه ومشاكله ، والعريّة وأصولها .

وقد تلتذد عبد الرحمن بن هرمز على جم غفير من الصحابة الذين أدركهم فهو قد سمع الحديث ورواه عن : أبي هريرة ، وأبي سيد الخدرى ، وعبد الله ابن مالك بن بُجَيْسِنَةَ ، وأبي سلمة بن عبد الرحمن ، وابن عباس ، وعمير مولى ابن عباس ، ومحمد بن مسلمة ، ومعاوية بن أبي سفيان ، ومعاوية بن عبد الله بن جعفر ، وأسيد بن رافع ، وعبد الله بن كعب بن مالك ، وكثيرين غيرهم .

ويبدو من هذا الثبوت الحافل أن ابن هرمز كان تلميذاً مجداً ، وأنه كان يتحرى الصواب في دراسته للحديث ، ولهذا لم يقنع بالأخذ عن صحابي واحد ، ولم يلزم أستاذاً واحداً ، ومع هذا فإن المراجع تذكر أنه كان أكثر ملازمة لأبي هريرة ورواية عنه ، فقد قال السيوطى في ترجمته له : « هو صاحب أبي هريرة ، أحد الحفاظ والقراء ، أخذ القراءة عن أبي هريرة وابن عباس ، وأكثر من السنن عن أبي هريرة (١) » .

وقال الذهبي في تاريخ الإسلام :

« وكان ثقة ثبّتا ، عالماً بأبي هريرة (٢) » .

وروى ابن سعد في طبقاته قال : حدثنا أبو بكر بن عبد الله بن أبي سَبرة ، عن عثمان بن عبيد الله بن أبي رافع ، قال : رأيت من يقرأ على الأعرج

(١) السيوطى : حسن المحاضرة ، ج ١ ، ص ١٤٥ .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

حديثه عن أبي هريرة عن رسول الله — صلى الله عليه وسلم — فيقول :
هذا حديثك يا أبا داود ؟ قال : نعم ، قال : فأقول حدثني عبد الرحمن
وقد قرأت عليك ؟ قال : نعم ، قل : حدثني عبد الرحمن بن هرم (١) .

وقال ابن قاضي شهبه في طبقاته :

« عبد الرحمن بن هرم بن أبي سعد الأعرج أبو داود المدني ، مولى
محمد بن ربيعة ، المقرئ المحدث ، صاحب أبي هريرة (٢) » .

فإذا عرفنا أن أبا هريرة — رضى الله عنه — كان من أكثر الصحابة
ملازمة للرسول ورواية لأحاديثه (حتى ليقال إن الأحاديث التي تضاف
إليه تقدر بخمسة وثلاثين ألف حديث) أدركنا أى علم حصل عبد الرحمن
ابن هرم بتتلذذه على أبي هريرة وملازمته له ، حتى لقد وصفه ابن سعد
بأنه كان ثقة كثير الحديث (٣) ، وقال البخارى : « أصح أسانيد أبي هريرة
أبو الزناد عن الأعرج عن أبي هريرة » ، ووصفه السيوطى بأنه كان وأفر
العلم ، مع الثقة والأمانة (٤) .

* * *

ولم يكن الحديث هو العلم الوحيد الذى تفرغ ابن هرم لدراسته وروايته ،
ولكنه كان من العلماء الثقات بأنسب العرب ، قال الذهبي في طبقات القراء :
« وله خبرة بأنسب قريش » ، وقال السيرافى : كان أعلم الناس بأنسب
قريش » .

وتوافر ابن هرم أيضاً على دراسة القرآن وقراءته . وكان من الثقات
المتبئين ، يلجأ إليه الناس للقراءة عليه ، ويعهدون إليه بكتابة المصاحف

(١) ابن سعد : الطبقات ، ج ٥ ، ص ٢٠٩ .

(٢) ابن قاضي شهبه : الطبقات ، مخطوطة دار الكتب القاهرة .

(٣) ابن سعد : المرجع السابق ؛ وانظر أيضاً : النووى : تهذيب الأسماء والنسب ،

القسم الأول ، الجزء الأول ، ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

(٤) السيوطى : المرجع السابق .

لاطمئنانهم إلى حفظه وقراءته وعلمه ومعرفته ، ولهذا تمكاد تجمع المراجع على وصفه بالمقرئ المحدث ، وقال ابن سعد :

« كان الأعرج يكتب المصاحف ، .

وقال الذهبي في طبقات القراء :

« كان الأعرج أحد من برز في القرآن والسنة ،^(١) .

ووصفه في تذكرة الحفاظ بأنه « كاتب المصاحف » ، وبأنه « كان ثقة

ثبتا عالما مقرئا » ، وقال في ترجمته له في تاريخ الإسلام :

« وكان يكتب المصاحف ويقريء القرآن ،^(٢) .

وكان عبد الرحمن بن هرمز — مع عنايته بعلوم الحديث والقرآن — عالما مبتكرا ، فإن المراجع والروايات تمكاد تجمع على أنه أول من وضع علم العربية والنحو ، فبعضها ينسب هذا إلى أبي الأسود الدؤلي ، وبعضها ينسبه إلى ابن هرمز ، والبعض الثالث ينسبه إليهما معا ، فقد روى ابن لهيعة عن أبي النضر قال :

« كان الأعرج أول من وضع العربية ، .

وقال القفطي في إنباه الرواة :

« قال اهل العلم : إنه (أي الأعرج) أول من وضع علم العربية ، والسبب في هذا القول أنه أخذ عن أبي الأسود الدؤلي ، وهو أول من أظهره وتكلم فيه بالمدينة ، وكان من أعلم الناس بالنحو ،^(٣) .

وقال ابن قاضي شبيهه :

« وهو أول من وضع النحو في قول ، .

(١) رواه عنه ابن قاضي شبيهه في المرجع السابق .

(٢) الذهبي : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ، ص ٢٧٥ .

(٣) القفطي : إنباه الرواة ، نشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، ج ١ ، ص ١٧٢ — ١٧٣ .

وقد فصّل الزبيدي في كتابه « طبقات النحويين » الأسباب التي دعت إلى ابتكار علم النحو في أواخر القرن الأول الهجري ، وأرجعها إلى انتشار الإسلام بين الشعوب غير العربية ، وما تبعه من تبادل الألسنة وخروج هؤلاء المسلمين الجدد عن قواعد النطق الصحيحة عند العرب ، وأشار الزبيدي في حديثه هذا إلى العلماء الذين ينسب إليهم الفضل في وضع علم النحو ومن بينهم : أبو الأسود الدؤلي ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، قال : « ولم تزل العرب تنطق على سبيلها في صدر إسلامها وماضى جاهليتها حتى أظهر الله الإسلام على سائر الأديان ، فدخل الناس فيه أفواجا ، وأقبلوا إليه أرسالا ، واجتمعت فيه الألسنة المتفرقة واللغات المختلفة ، فنشأ الفساد في اللغة العربية ، واستبان منها في الإعراب الذي في هو حليها والموضح لمعانيها فتفطن لذلك من نافر بطباعه سوء أفهام الناطقين من دخلاء الأمم بغير المتعارف من كلام العرب ، فعظم الإشفاق من فُشس ذلك وعَلبته ، حتى دعاهم الحذر من ذهاب لغتهم وفساد كلامهم إلى أن سببوا الأسباب في تقييدها لمن ضاعت عليه ، وتثقيفها لمن زاعت عنه .

فكان أول من أصل ذلك وأعمل فكره فيه أبو الأسود ظالم بن عمرو الدؤلي ، ونصر بن عاصم ، وعبد الرحمن بن هرمز ، فوضعوا للنحو أبوابا ، وأصلوا له أصولا ، فذكروا عوامل الرفع والنصب والخفض والجزم ، ووضعوا باب الفاعل والمفعول والتعجب والمضارع ؛ وكان لأبي الأسود في ذلك فضل السبق وشرف التقدم ، ثم وصل ما أصلوه من ذلك التالون لهم والآخذون عنهم ، فكان لكل واحد منهم الفضل بحسب ما بسط من القول ، ومد من القياس ، وفتق من المعاني . وأوضح من الدلائل ، وبين من العلل » (١) .

وكان عبد الرحمن إلى هذا كله الأستاذ الأول للإمام مالك — إمام

(١) الزبيدي : طبقات النحويين والنحويين ، نشر أبو الفضل إبراهيم ، ص ٢٠٢ .

دار الهجرة - عنه أخذ العلم أول ما أخذ ، وظل يصاحبه ويلازمه وحده سنين طويلة ، على هذا تجمع المراجع ، وإن اختلفت في تحديد العلم أو العلوم التي أخذها التلميذ عن الأستاذ ، فقد جاء في كتاب « إنباه الرواة » للقفطي :

« يروى أن مالك بن أنس إمام دار الهجرة - رضى الله عنه - اختلف إلى عبد الرحمن بن هرمز عدة سنين في علم لم يبثه في الناس ، فمنهم من قال : تردد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما ، وقيل : كان ذلك في علم أصول الدين وما يُرَدُّ به مقالة أهل الزيغ والضلالة ... والله أعلم ،^(١) .

ولد الإمام مالك - رضى الله عنه - في المدينة في أواخر القرن الأول للهجرة - في سنة ٥٩٣ على أرجح الأقوال - ، وفي المدينة نشأ ، وفيها عاش عمره كله لم يغادرها البتة إلا إلى مكة للحج .

وكانت المدينة في ذلك الوقت حافلة بعدد كبير من التابعين ، وكانت موطن العلم وموئل العلماء ، وفي مقدمتهم عالمنا عبد الرحمن بن هرمز ، والاتصال مالك به وتلبذه عليه قصة طريفة ، روى ابن مالك نفسه هذه القصة قال :

« كان لى أخ في سن ابن شهاب ، فألقى أبى يوماً علينا مسألة ، فأصاب أخى وأخطأت ، فقال لى أبى : ألهتك الحمام عن طلب العلم ؛ فغضبت ، وانقطعت إلى ابن هرمز سبع سنين (وفي رواية ثمانى سنين) لم أخلطه بغيره وكنت أجعل فى كفى ثمرأ وأنا وله صبيانه ، وأقول لهم : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا مشغول ، ،

ومن هذا الحديث نستطيع أن نعرف أن مالكا بدأ يتلمذ على ابن هرمز فى حدائته أى فى نحو العاشرة من عمره بعد أن بلغ مبلغ من يسأل فىخطيء أو يصيب ، ويؤاخذ على خطئه وصوابه ، ولا يمكن بداهة أن يبلغ الصبى هذا المبلغ ويؤاخذ هذه المؤاخذة قبل العاشرة ؛ ونستطيع أن نعرف كذلك أن عتاب أليه كان ذا أثر قوى فى نفسه ، فدفعه إلى ترك اللهو واللعب والتفرغ إلى طلب

(١) القفطي : إنباه الرواة ، ج ١ ، ص ١٢٢ - ١٢٤ .

العلم وملازمة أستاذ بعينه - هو ابن هرمز - سنين طويلة ، أقلها سبع سنين ؛
ونستطيع أن نعرف أن التلميذ الصغير مالكا ، كان حريصا الحرص كله
على الإفادة من علم أستاذه كله حتى ليتحایل فيهدى صبيان ابن هرمز بعض
التمر لمنعوا أى وافد من الدخول إليه أثناء الدرس ؛ ونستطيع أن نعرف
أخيراً أن ابن هرمز كان قد وصل في ذلك الوقت سن الشيخوخة ، بدليل
قول مالك : « وكنت أقول لصبيانه : إن سألكم أحد عن الشيخ فقولوا
مشغول » .

وقد أعجب ابن هرمز الأستاذ ، بمالك التلميذ ؛ فكان أشد حرصا
على الاجتماع به وملازمته والتدريس له ومذاكرته في العلوم المختلفة ، فقد جاء
في المدارك :

« قال ابن هرمز يوماً لجاريتته من الباب ؟ فلم ترَ إلا مالكا فرجعت
فقال ما ثم إلا ذاك الأشقر ، فقال : ادعيه فذلك عالم الناس ؛ وكان مالك
قد اتخذ تبتانا - أى سروا - محشوا للجلوس على باب ابن هرمز ، يتقى
به برد صخر المسجد ، وفيه كان مجلس ابن هرمز » .

فابن هرمز يصف تلميذه مالكا بأنه عالم الناس ؛ والدرس يطول ساعات
وساعات لا يسأم من طوله الأستاذ ولا يضجر التلميذ ، بل إن التلميذ يتخذ
لهذه الجلسات الطويلة عندها . فيلبس سروا لا مبطنا يقيه برد الحجر على باب
ابن هرمز إن طال به الانتظار ، ويقيه برد الصخر بالمسجد إن طالت به
ساعات الدرس ، فإنه يروى أن مالكا كان يلزم ابن هرمز من بكرة النهار
إلى الليل . جاء في المدارك نقلا عن مالك نفسه :

« كنت آتى ابن هرمز بكرة ، فما أخرج من بيته حتى الليل » .

ومن هذا يتضح أن مالكا كان يتلقى دروسه على ابن هرمز في البيت
تارة ، وفي المسجد تارة أخرى .

وقد عرفنا من قبل أن ابن هرمز كان من الثقات ، أجمعت المراجع على توثيقه ووصفه بالأمانة ، وأنه كان يتحرى الصواب في روايته للحديث ، ولهذا كان اثره في تليذه مالك واضحاً ، فنشأ مالك دقيقاً مثبِتاً ، يترسم خطى أستاذه ، ويلتزم أسلوبه في البحث والتحري ، ولهذا يروى أن مالكا كان يكثر من قوله : « لا أدري » وأنه كان يقتدى في هذا بأستاذه ابن هرمز . جاء في المدارك :

« قال مالك : سمعت ابن هرمز يقول : ينبغي أن يورث العالم جلساءه قول لا أدري حتى يكون ذلك أصلاً في أيديهم يفرعون إليه ، فإذا سئل أحدهم عما لا يدري قال لا أدري ... قال ابن وهب : كان مالك يقول في أكثر ما يسأل عنه : لا أدري . »

وهكذا تكون شيمة العالم الحق ، لا يأنف أن يقول لا أدري إذا كان لا يدري ، ويأنف أن يفتي بما لا يعلم ، بل لقد بلغ من دقة ابن هرمز وشدة حرصه أنه كان لا يجب أن يروى عنه ، ولهذا نهى مالكا أن يذكر اسمه في سنده ، وآثر بهذا أن يخمل ذكره عن أن يشيع عنه النقل وقد يكون منه الخطأ ، فيجرح ويتهم بالكذب .

وكان مالك ذا عقل وبصيرة ، ينقد ما يستمع إليه نقد العارف الخبير ، ولهذا كان ابن هرمز يؤثره هو وصاحبه عبد العزيز بن أبي سلمة على غيرهما من تلاميذه ، لأنهما ينهانه إلى الخطأ إن أخطأ ، حتى لقد قيل له : « نسألك فلا تجيبنا ، ويسألك مالك وعبد العزيز فتجيبهما » ، فيقول : « دخل عليّ في بدني ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل عليّ في عقلي مثل ذلك ، وأتم إذا سألتوني عن الشيء فأجبتكم قبلتموه ، ومالك وعبد العزيز ينظران فيه . فإن كان صواباً قبلاه ، وإن كان غيره تركاه »

أما ما هو العلم الذي أخذه مالك عن ابن هرمز فهذا ما لا نعرفه على وجه التحقيق ، فقد روينا من قبل عن القفطي وغيره أن مالكا اختلف إلى عبد الرحمن ابن هرمز عدة سنين في علم لم يثبه في الناس ، « فمنهم من قال :

تردد إليه لطلب النحو واللغة قبل إظهارهما، وقيل كان ذلك من علم أصول الدين وما يرد به مقالة أهل الزيغ والضلالة،؛ ولسنا نميل إلى الرأى الأول لأن علم النحو واللغة ليس به من الأسرار ما يخشى معه أن يبدى بين الناس، والرأى الثانى أقرب إلى الصواب، ويؤكد أن مالكا قال عن أستاذه ابن هرمز أنه « كان من أعلم الناس بالرد على أهل الأهواء وما اختلف فيه الناس. » .

فهذه العبارة تدل على أنه كان يتلقى عليه اختلاف الناس فى الفتيا والفقه، ويتلقى عنه الرد على أهل الأهواء، وهذه كلها أمور دقيقة شائكة لا يستساغ نشرها على كل الناس، يقول الأستاذ محمد أبو زهرة فى كتابه القيم عن الإمام مالك :

« وكانه بذلك يقسم العلم قسمين : علم يلقى على الملأ والجمهور ولا يختص به أحد إذ لا ضرر فيه لأحد، وكل العقول تقوى على قبوله واستساغته وهضمه والانتفاع به؛ وقسم لا يصح أن يعرفه إلا خاصة الناس فلا يلقى، لأن ضرره على بعض النفوس أكثر من نفعه، كالرد على أهل الأهواء، فإنه ربما يعسر فهمه على بعض العقول، وربما يفهمونه على غير وجهه... فيكون الضرر حيث كان يرجى النفع، ولذلك لم يدع كل ما علمه عن ابن هرمز، وإن كان تلقاه، »

هذا موجز عن حياة ابن هرمز العلية، عرفنا منه أى العلوم كان يتقن، وعرفنا منه مكانته العلية الممتازة بين السادة الأفاضل من علماء المدينة وكبار التابعين، وعرفنا منه صلته بتلميذه النابغة الإمام مالك - رضى الله عنه -، ولم يكن مالك - بطبيعة الحال - تلميذه الوحيد، بل أخذت عن عبد الرحمن أمّة من العلماء والمحدثين، أشارت المراجع إلى نفر منهم، ومجمل ما فيها أنه روى عنه: الزهرى، وأبو الزناد عبد الله بن ذكوان، وصالح بن كيسان، ويحيى بن سعيد الأنصارى، وزيد بن أسلم، وموسى

ابن عقبة ، وجعفر ابن ربيعة ، وعلقمة بن أبي علقمة ، ومحمد بن عجلان ،
وعبد الله ابن لهيعة ، وغيرهم .

وقد عاش عبد الرحمن بن هرمز عمره كله في المدينة ، لم يغادرها — قبل
رحلته الأخيرة إلى الإسكندرية — إلا مرة واحدة زار فيها الشام ، وقد
انفرد ابن عساکر في « تاريخ دمشق » بذكر رحلته هذه الشامية ، قال
في ترجمته لابن هرمز : « ووفد على يزيد بن عبد الملك » ، ونستطيع أن
نحدد وقت هذه الرحلة بأنها كانت بين سنتي ١٠١ و ١٠٥ هـ ، ففي السنة
الأولى ولي يزيد الخلافة ، وفي السنة الثانية توفي .

وقال البلاذري في « فتوح البلدان » :

« وحدثني محمد بن سعد عن الواقدي أن ابن هرمز الأعرج القاريء كان
يقول : خير سواحلكم رباطا الإسكندرية ، فخرج إليها من المدينة
مرابطا ، فمات بها في سنة ١١٧ هـ ،^(١)»

ويبدو أن الرجل كان قد عمر وقارب المائة حين خرج مرابطا إلى
الإسكندرية فهو كما عرفنا كان أقرب تلاميذ أبي هريرة إليه . صحبه مدة ،
وأخذ عنه ، وروى عنه الحديث ؛ وأبو هريرة توفي سنة ٥٧ أو ٥٨ هـ ،
فإذا قدرنا أن سن ابن هرمز كانت عند وفاة أستاذه أبي هريرة ما بين
الثلاثين والأربعين صحح استنتاجنا أنه خرج إلى الإسكندرية وقد قارب
المائة من عمره ، ويؤكد هذا الاستنتاج ما ذكرناه سالفًا من تبرير ابن هرمز
لإيثاره مالك وعبد العزيز دون بقية تلاميذه ، حين قال : « دخل عليّ
في بدني ضعف ، ولا آمن أن يكون قد دخل عليّ في عقلي مثل ذلك » ،
وقد ذكرنا من قبل أيضا أن مالكا ولد في سنة ٩٣ هـ ، وأنه بدأ يتلمذ علي

(١) البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٣٠ ، وقال (القمي : تاريخ الإسلام ، ج ٤ ،
ص ٢٧٥) في ختام ترجمته لابن هرمز : « انتقل في آخر أيامه إلى مصر ، وتولى غربيا
بالإسكندرية سنة سبع عشرة ومائة على الصحيح » .

ابن هرمز في العاشرة من عمره ، أى في سنة ١٠٣ أو نحوها ، وأنه لازمه مدة أقلها سبع سنوات ، أى إلى سنة ١١٠ ؛ ولهذا نرجح أن ابن هرمز خرج إلى الإسكندرية بعد ١١٠ هـ ، ولهذا فهو لم يبق بالإسكندرية إلا سنوات قليلة ، نحو الخمس سنوات ، ثم توفى إلى رحمة الله في سنة ١١٧ ، وهو تاريخ اتفق عليه جميع من ترجموا له .

ولم تشر المراجع بكلمة واحدة إلى هذه السنوات القليلة التي قضاها الشيخ ابن هرمز في الإسكندرية قبل وفاته وكيف قضاها ، وأغلب الظن أن الرجل قضى هذه السنوات في التدريس ورواية الحديث ، فقد كانت الإسكندرية - خير السواحل رباطا كما وصفها ابن هرمز - تجتذب إليها عددا كبيرا من علماء المسلمين ومن أفاضل التابعين ، وكان يقيم بها وقت مقام ابن هرمز بها عدد كبير من هؤلاء التابعين بمن ذكرنا ، من أمثال بن شفي الهمداني ، وربيعة بن سيف المعافري الإسكندراني ، وزاهر ابن معبد بن عبد الله بن هشام التيمي ، وهؤلاء وغيرهم كانوا يكونون المدرسة الأولى التي أشاعت علوم القرآن والحديث والفقه واللغة ونشرتها في مدينة الإسكندرية .

وفي الإسكندرية اليوم ، في شارع رأس التين ، مسجد يسمى مسجد سيدى عبد الرحمن بن هرمز ، وبه ضريح ينسب إلى هذا التابعي الجليل ، ولم يشر إلى هذا المسجد وهذا القبر أحد من المؤرخين والرحالة إلا على مبارك في كتابه «الخطط التوفيقية» ، ولم ينسبه إلى سيدى عبد الرحمن ، وإنما نسبه إلى بانيه «الحاج درويش أبى سن» ، فقد قال عند تعداد مساجد المدينة :

« مسجد أبى سن أصل أرضه مقبرة بها ضريح الشيخ عبد الرحمن ابن هرمس ، وكان عليه مقصورة من خشب ، فلما بنى ما حوله ودخل في تنظيم المدينة بنى ذلك المسجد ، وجعل داخله ضريح الشيخ المذكور ، والذي بناه المرحوم درويش أبو سن ، وهو مسجد تام المرافق ،

حسن المنظر ، مقام الشعائر ، ويصرف عليه من الوقف ، (١)
فالمسجد حديث البناء ، بنى في منتصف القرن الماضي ، وقد زرته مرارا ،
ورأيت في أعلى محرابه لوحة صخرية كتب عليها :

« ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون ، بنى هذا صاحب
الخيرات حاج درويش أبو سن ١٢٦٥ »

وإلى يسار المحراب غرفة بها ضريح تعلوه مقصورة خشبية ، هو المنسوب
إلى سيدي عبد الرحمن بن هرمز ، وإلى جانبه ضريح رخامي بسيط دُفن به
باني المسجد الحاج درويش أبو سن ، وعلى حائط هذه الغرفة لوحة حجرية
أخرى تحمل نصا شبيها بالنص السابق المرقوم أعلى المحراب .

والباحثون في تاريخ الإسكندرية لا يطمثون إلى صحة نسبة هذا
الضريح إلى سيدي عبد الرحمن ، وقد أكد لي هذا الشك فضيلة الأستاذ
الشيخ بشير الشندي - المدير السابق لمكتبة بلدية اسكندرية - ، وروى
لي أن الشيخ محمد البنا - أحد علماء الإسكندرية في القرن الماضي - كان
يحتاز شارع رأس الدين الحالي دائما في طريقة إلى سراي رأس التين لزيارة
الخدوي إسماعيل ، وقد رأى ليلة فيما يرى النائم أن صاحب هذا الضريح
يعاتبه ويقول له : « كيف تمر بقبري ولا تحييني ؟ » ، فسأله الشيخ « ومن
أنت ؟ » ، قال : « أنا عبد الرحمن بن هرمز » ، وقصَّ الشيخ البنا هذه الرواية
على نفر من أصدقائه ، وكان من بينهم رجل فاضل من أرباب المدينة هو
الشيخ درويش أبو سن ، فتطوع لبناء هذا المسجد ليضم الضريح ، ومن
ثمَّ نسب المسجد والضريح إلى سيدي عبد الرحمن ابن هرمز ، ثمَّ أوصى
أن يدفن هو إلى جواره بعد وفاته .

فنسبه هذا الضريح إلى سيدي عبد الرحمن نسبة حديثة ، ترجع إلى
منتصف القرن الماضي ، ولم يكن صاحب هذا الضريح معروفا قبل هذه

(١) على مبارك : المخطط التوفيقية . ج ٧ ، ص ٧٠ .

الحادثة ، ويؤكد هذا الشك مرة أخرى أن دارس طبوغرافية المدينة لا يطمئن إلى وجود هذه البقعة من الأرض المقام عليها الضريح في أوائل القرن الثاني للهجرة ، وأغلب الظن أن هذه البقعة كانت وقتذاك مغمورة بمياه البحر ، شأنها شأن معظم المنطقة التي يقوم عليها حي الأنفوشي ورأس التين .

ونحن إذا انتهينا من هذا الشك إلى شيء من الاطمئنان ، ثار أمامنا شك آخر ، فإلى القرب من شارع رأس التين الحالي ، وفي نهاية شارع الميدان بل على امتداده يوجد شارع يسمى شارع راوية الأعرج ، ، وقوم فيه زاوية صغيرة تسمى « زاوية الأعرج » ، وليس بها ضريح ، ويجرؤ البعض فينسبونها إلى سيدى عبد الرحمن بن هرمز الأعرج ، فقد كان الرجل أعرجا ، وشهر بهذه الصفة في كتب الحديث .

ولكن هذه النسبة خاطئة أيضا ، والذي نرجحه أن هذه الزاوية تنسب إلى ولى آخر من أولياء الله الصالحين عاش في الإسكندرية في القرن الثامن للهجرة ، وكان اسمه « الشيخ برهان الدين الأعرج » ، ولهذا الشيخ قصة طريفة ، فهو المشجع الأول للرحالة المشهور ابن بطوطة على إتمام رحلاته في الشرق الأقصى حتى يصل الهند والصين ؛ ذكر ابن بطوطة أنه زار هذا الشيخ أثناء زيارته لمدينة الإسكندرية ، وأنه أقام في ضيافته ثلاثة أيام ، قال :

« ومنهم (أى من شيوخ الإسكندرية) الإمام العالم الزاهد الورع الخاشع برهان الدين الأعرج ، من كبار الزهاد وأفراد العباد ، لقيته أيام مقامى بالإسكندرية ، وأقت في ضيافته ثلاثا .

دخلت عليه يوما فقال لى : « أراك تحب السياحة والجولان في البلاد ، ، فقلت له : « نعم ، إني أحب ذلك ، ، ولم يكن حينئذ خطر بخاطرى التوغل في البلاد القاصية من الهند والصين ، فقال : « لا بد لك إن شاء الله من

زيارة أخى فريد الدين بالهند ، وأخى ركن الدين زكريا بالسند ، وأخى برهان الدين بالصين ، فإذا بلغتهم فأبلغهم منى السلام ، ، فعبجت من قوله ، وألتي في روعى التوجه إلى تلك البلاد ، ولم أزل أجول حتى لقيت الثلاثة الذين ذكرهم ، وأبلغتهم سلامه ، ولما ودعته زودنى دراهم لم تزل عندى محوطة ، ولم أحتج بعد إلى إنفاقها ، إلى أن سلها منى كفار الهنود فيما سلبوه لى فى البحر ، (١) .

ودارسو ابن بطوطة ورحلته يرون دائما أن هذه الكلمات الموحية من الشيخ برهان الدين الأعرج السكندرى هى التى أوحى إلى ابن بطوطة فكرة الارتحال إلى أن يصل إلى هذه الأطراف القاصية من بلاد المسلمين .

وبعد ، فلعلنا أزلنا بهذا التحقيق كثيرا من الشكوك التى تحيط بضريح سيدى عبد الرحمن بن هرمز ومسجده ، وبسميته برهان الدين الأعرج وزاويته ، ولعلنا قننا ببعض الواجب علينا من التعريف بسيرة هذا التابعى الجليل الذى تعزى الإسكندرية به ، وحق لها أن تعز به وأن تفخر ، فقد أصبح تاريخه جزءاً من تاريخها .

صالح الدين السبيل

(١) مهذب رحلة ابن بطوطة ، ج ١ ، ص ١٦ - ١٧ .

مراجع البحث

ابن الأثير (عز الدين أبو الحسن علي)

= الكامل في التاريخ ، ١٢ جزء ، المطبعة الأزهرية بالقاهرة ١٣٠١ هـ

= اللباب في تهذيب الأنساب ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٣٥٧ - ١٣٦٩

ابن بطوطة (محمد بن عبد الله)

= مهذب الرحلة ، نشر أحمد العوامري وأحمد جاد المولى ، القاهرة

١٩٣٣

البلاذري (أحمد بن يحيى)

= فتوح البلدان ، القاهرة ١٣١٨

ابن تغرى بردى (جمال الدين يوسف ، أبو المحاسن)

= النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، الجزء الأول ، القاهرة

١٩٢٩

ابن حجر . (شهاب الدين أحمد بن علي العسقلاني)

= تهذيب التهذيب ، حيدر آباد الدكن ١٣٢٦ هـ ، الجزء السابع

الذهبي (شمس الدين محمد بن أحمد)

= تاريخ الإسلام وطبقات المشاهير والأعلام ، القاهرة ١٣٦٧ -

١٣٦٩

= تذكرة الحفاظ ، أجزاء ، حيدر آباد الدكن (بدون تاريخ)

الزبيدي (أبو بكر محمد بن الحسن)

= طبقات النحويين واللغويين ، نشر محمد أبو الفضل إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٤

- أبو زهرة (الشيخ محمد)
 = الإمام مالك ، القاهرة
 ابن سعد (كاتب الواقدي)
 = الطبقات الكبير ، نشر سخاو وآخرين ، ١٩٠٥ - ١٩٢١
 السيوطي (جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر)
 = حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، جزان ، القاهرة ١٣٢٧
 = بغيه الوعاة ، القاهرة ١٣٢٦
 ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن)
 = تاريخ مدينة دمشق ، والمجلد الأول ، نشر صلاح الدين المنجد ،
 دمشق ١٩٥١
 ابن العماد (أبو الفلاح عبد الحمى)
 = شذرات الذهب في أخبار من ذهب ، القاهرة ١٣٥٠ - ١٣٥٣
 ابن قاضي شعبة (تقي الدين أحمد بن محمد)
 = طبقات الشافعية ، مخطوط بدار الكتب المصرية
 القفطى (جمال الدين أبو الحسن علي بن يوسف)
 = إنباه الرواة على أنباء النحاة ، ظهر منه ٣ أجزاء ، ونشر محمد
 أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دارالكتب المصرية ، ١٩٥٠ - ١٩٥٥
 مبارك (علي)
 = الخطط التوفيقية الجديدة ، ٢٠ جزءا ، بولاق ١٣٠٤ - ١٣٠٦
 ابن النديم
 = الفهرست ، طبع القاهرة (بدون تاريخ)
 أبو نعيم (أحمد بن عبد الله)
 = حلية الأولياء وطبقات الأصفياء ، ١٠ أجزاء ، القاهرة ١٣٥١ هـ